مقال لمجلة (الحديث) الحلبية عن أفاميا

متى خربت أفاميا؟

قرأت في عدد شباط ١٣٣٩ من مجلتكم الزاهرة مقالاً لصديقي الدكتور كاظم الداغستاني فيه وصف الحفريات التي أجرتها البعثة الأثرية البلجيكية في مدينة أفاميا الجميلة، وبيان موجز عن تاريخ هذه المدينة وأكثر هذا البيان يتعلق بالعهود السابقة للإسلام. والوصف والبيان مقتبسان مما أدلى به مدير البعثة المذكورة إلى كاتب المقال.

وقد حمدت سعي الصديق الدكتور في إذاعته أخبار هذه الحفريات الجارية في القضاء الذي يتولى اليوم إدارته. وهي بادرة حسنة تصور من موظف إداري لم يسبقه أحد من زملائه في البحث عن مثل هذه المكتشفات العلمية الثمينة التي تجري حوله، حتى ولا الاكتراث بها، ناهيك الكتابة في الصحف والمجلات. عنها أو عن أي موضوعات جغرافية وعمرانية وانتوغرافية وأثرية تتعلق بمنطقة عمله، ليطلع جمهور القراء في بلاد الشام خاصة على ما برحوا يجهلونه من معالم في كافة النواحي والأقضية والمحافظات بالبحث والإجابة عن أسئلة في الموضوعات المذكورة ومازلت ألاحق هذا الاقتراح حتى قدرته وإذاعته. وبتنا الآن ننتظر الأجوبة، لعلها إن جاءت حسبما طلب تمكنني من تأليف موسوعة تكشف ما صعب عن خطط بلادنا ومآثرها، وتعزز ما هو موجود في كتابي الذي نشرته سنة ١٩٣٤ واسمه "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية".

وقد كنت أتمنى لو أن الصديق الدكتور داغستاني اطلع على كتابي هذا، ففيه بحث غير يسير (من ص ١٤٥ إلى ص ١٥٤) عن تاريخ مدينة أفاميا لاسيما في العصور الإسلامية وعن حفريات البعثة البلجيكية المذكورة التي حمدت عملها كثيراً وهو يتفق في أكثر النواحي مع ما نشره هو - أخيراً.

وقد جئت الآن في مقالي هذا أبدي رأيي الذي ذكرته في جولتي الأثرية في أمر خراب مدينة أفاميا، متى وقع ومن أوقعه؟ وألفت إليه الأنظار لأن المعلومات التي أدلى

بها مدير البعثة المذكورة إلى الدكتور داغستاني تجعل وقوع هذا الخراب في العهد الإسلامي وفي سنة ١١٥٧م ثم في سنة ١١٧٠.

ومعنى هذا أن مدينة أفاميا ظلت عامرة بالمباني آهلة بالسكان ـ تماماً أو قسماً طول العصور الإسلامية الأولى أي من القرن السابع إلى الثاني عشر للميلاد. وإنها ضربت فيما بعد في السنتين اللتين ذكرهما بالزلازل.

على حين أن الواقع الذي استخلصته من المصادر العربية وذكرته في كتابي (جولة أثرية) هو مغاير لما ذكر، ذلك أن خراب مدينة أفاميا كان حاصلاً قبل مجيء المسلمين. فهم لما فتحوا هذه الديار في القرن السابع الميلادي (سنة ٦٣٨ منه) شاهدوا أفاميا خراباً كما هي الآن فاكتفوا بحصنها (أي بقلعة المضيق الحالية) ولم يعمروها قط، ولعل ذلك لأنهم لم يجدوا مقدرة أو فائدة اقتصادية أو إدارية تحملهم على البذل والتعب في إصلاحها كما وجدوا في بقية المدن التي عمروها بعد خرابها كمنبج وسلمية وغيرهما. مما فيه مزايا غير متوفرة في أفاميا كتوفر الماء وجودة الموقع الجغرافي وغير ذلك. وهم إذا ذكروا أفاميا في تواريخهم عنوا حصنها والقرية المبنية في داخله. ودليلي على هذا أولاً المؤرخ ابن الأثير فقد قال في حوادث سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م) وفيها سار نور الدين محمود زنكي إلى حصن أفاميا. (ولم يقل مدينة أفاميا) وهو للفرنج أيضاً وبينه وبين حماه وشيزر مرحلة وهي حصن منيع على تل مرتفع عالٍ من أحسن القلاع وأمنعها وكان من به من الفرنج يعزون على أعمال حماة وسيزر وينهبونها فسار نور الدين إليه وحاصره وملكه وحصنه بالرجال والذخائر.. الخ.

فلو كانت مدينة أفاميا عامرة آهلة في سنة ١١١٠ المذكورة (القرن الثاني عشر الميلادي) لاقتضى أن يذكرها ابن الأثير وهو أصدق المؤرخين في صحة الوصف وتقرير الحقائق. فحصره القول على الحصن دون مدينة أفاميا أكبر دليل على أن هذه المدينة كانت خراباً قبل سني الزلزلتين اللتين ظن مدير البعثة البلجيكية أن الخراب حصل فيهما.

ودليل ثانٍ هو الأمير أسامة أحد أمراء بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وقد عاش هذا الأمير العالم البطل عمراً طويلاً في القرن الثاني عشر المذكور، وألف فيما ألف

كتاباً سماه (الاعتبار) طبع في أوروبا وأميركا، جمع فيه أخباراً وكوائن شتى عن طراز الحياة والصيد والفروسية وقتال الصليبيين بين بلدته شيزر وحصن أفاميا القريبة منها.

قال فيه (ص ٤٧ طبع جامعة برنستون بتحقيق الأستاذ فيليب حتى). وسرنا إلى أفاميا فلقينا فارسهم وراجلهم - وهو يعني الصليبيين - في الخراب الذي لها. وهو مكان لا ينصرف فيه الخيل من الحجارة والأعمدة وأصول الحيطان الخراب.. إلخ.

وهذا أبلغ وصف لحالة خرائب أفاميا التي هي الآن كما كانت في القرن الثاني عشر الميلادي لا تستطيع الخيل أن تجول وسط حجارتها وأعمدتها وأصول حيطانها الخراب. ولعمري لا تكون حالة المدن على هذا النحو - مالم تكن خراباً منذ قرون عديدة.

فهذان القولان، مع فقدان أي ذكر أو وصف لأفاميا كمدينة عامرة وآهلة في أي كتاب أو مخطوط عربي في الجغرافيا أو التاريخ أو الرحلات.. كل ذلك مما ينفي العمران ووجود السكان عنها خلال العصور الإسلامية. حتى أن الجغرافي العربي الكبير ياقوت اكتفى في معجمه بقوله "أفاميا مدينة عظيمة قديمة على نشز من الأرض لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب (يريد العاصي) فقط. ولو كانت في زمنه أو قبل زمنه عامرة آهلة لأطنب وأسهب في وصف عمرانها ومن نشأ فيها ولم يكتف بكملة (قديمة) التي عبر بها عن خرابها وعن قدم هذا الخراب.

فإذا ثبت هذا يكون خراب أفاميا قد وقع قبل الإسلام بقرن ونيف، معظمه في الزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٢٦ م وخربت أيضاً فيما خربته مدينة أنطاكية العظيمة عاصمة بلاد الشام وقتئذ وأهلكت فيها كما قيل ربع مليون نسمة. فما أصاب أنطاكية أصاب أفاميا حتماً. ولعل الروم البيزنطيين رمموا أفاميا بعد ذلك المصاب كما رمموا أنطاكية فعاد إليها بعض عمرانها أو أكثره وعادت تحفل بالسكان، إلا أن هذا أيضاً إن حدث قضى عليه ملك الفرس كيخسرو الثاني (لأخيسرويس كما ذكره الدكتور داغستاني) في سنة ٥٧٣. وقد كان هذا الملك الجبار الهدام يحمل أفظع عواطف الحقد التي كانت تجيش إذ ذاك في قلوب الفرس ضد خصومهم الروم البيزنطيين. فهاجمهم في بلاد الشام، فخرب وأحرق ونهب

وأجهز على ما أبقته الزلازل وفوضى الإدارة البيزنطية. ولما جاء المسلمون بعده بخمس وستين سنة (٦٣٨م) وجدوا بعض تلك البلدان خراباً بالمرة كالآندرين وأفاميا وبعضها قد خرب معظمه أو كاد، كما كان الحال في أنطاكية ومنبج وسلمية وباليس وخناصرة واسريا وأم الجمال (وهذه جنوبي حوران) وغيرها من المدن والقرى التي كانت منتشرة، ومن أسباب ازدياد هذا الخراب وقتئذ سوء إدارة الروم البيزنطيين. فقد جاء هؤلاء في أواخر عهدهم وغلبت الفوضى على إدارتهم وشغلوا بالخلافات المذهبية مع اليعاقبة وبالحروب المستمرة مع الفرس، فكانت مدن الشام تقع بين المطرقتين. فانحطت من جراء ذلك ونقص سكانها وخربت منها على الأخص المدن والقرى التي ذكرناها.

ولم تكتف الزلازل وهجمات الفرس بالقدر الذي ذكرناه، فقد جاءت زلزلة عظيمة سنة ٥٨٩ أجهزت على ما بقي في أنطاكية وأفاميا من الزلزلة الأولى، وتكررت غارات الفرس وفظائعهم إلى قبيل انتشار البعثة الإسلامية حتى تم خراب أفاميا بالمرة وانحصر عمرانها في حصنها فقط كما ذكرنا.

ثم قول مدير البعثة إن المماليك استولوا على هذه البقاع في القرن الثالث عشر، وأنهم أحاطوا المدينة بسور قوي.. الخ فيه نظر، وصحيحه أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي (وهذا لم يكن مملوكاً)، بل نبيلاً سلجوقياً من أعاظم ملوك المسلمين في الحرب والعمران والتقى) استخلص قلعة أفاميا من الصليبيين سنة ١١١٠م وانتقلت من بعده إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي ومن هذا إلى أبنائه وأحفاده ولم تصل إلى يد السلاطين المماليك إلا بعد انقراض الأسرة الأيوبية بكاملها، ثم إن الذين أحاطوا القلعة (لا المدينة) بالأسوار والأبراج هم أولاً نور الدين محمود زنكي ثانياً الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب ثم الناصر يوسف حفيد الظاهر غازي، كما تشهد بذلك الكتابات العربية التي قرأتها في قلعة المضيق وهي ماثلة حتى الآن وقد أفضت في كتابي (الجولة الأثرية) في هذا الموضوع وفي وصف القلعة الحالية وما حولها من المباني الأثرية، فمن شاء فليُعْد إليه والسلام.